طرائف
من كتاب مجمع المسرّات

للدكتور شاكر الخوري

صور من الحياة الاجتماعية بدمشق

في أواخر القرن التاسع عشر

صيدلية سوق الخيل

كنتُ ساكناً في الشام بحارة باب توما ، أما الذوات والأغنياء فكانوا يقطنون الجهة الأخرى ، مثل باب ساروجا والقنوات ، فارتأيتُ ان أنشيء صيدلية في تلك الجهة أكون فها بعد الظهر ، وقبله أبقى في جهة باب توما .

وصيدلية سوق الخيل كانت ملك أمين افندي الجندي ، الذي هو من أسرة الجندي التي أصلها من حماة ، وكان من أعظم سراة دمشق ، لأنه كان مفتيها سابقاً ، وقد أقامه بهذه الوظيفة فؤاد باشا سنة 1860 [1] ، ثم تعين عضواً في مجلس شورى الدولة ، ثم أُرسل الى اليمن لأجل تنظيم محاكمها ومجالسها وكل شيء علمي فيها ، ثم عاد إلى دمشق وقطنها بعزّ وجاه وغنى واعتبار ، وكان كل أهل دمشق يقبّلون يديه . ومحله قرب المستشفى العسكري [2] ، وهو منزلان متّسعان جداً .

---

(1) فؤاد باشا كان المندوب الذي أوفدته الدّولة العثمانية ، بصلاحية مطلقة ، للتحقيق في مجازر عام 1860 التي راح ضحيتها آلاف المسيحيين ، ولمعاقبة فاعليها .

(2) المستشفى العسكري المعروف في أواخر العهد العثماني بالخَسْتَخانة ، كان موقعه في بوابة الصالحية عند دار المهندسين ومرآب فندق الشام في عصرنا .

أما عدم توفيقه بالاولاد فأمر مستغرب ، وقد قال لي انه ولد له سبعة عشر ولداً زوّج معظمهم فأولدوا ، غير أنه لم يبق من نسله إلا حفيده أمين .

[حكاية الحمار]

بما أن سكني كان في باب توما والصيدلية بسوق الخيل ، اضطررت أن أشتري حماراً لينقلني من جهة إلى أخرى . وكان هذا الحمار ينهق دائماً ، ولما كنت أربطه على باب الصيدلية كان يقلق الجيران بصوته المزعج ويقلقني . ولما أذهب إلى منزل أمين أفندي الجندي ، كنت أربطه قرب الباب ، غير أنه كان يبدأ بالنَّهيق إلى ما لا نهاية ، حتى يضطر الأفندي إلى السكوت أحيانا والنظر إلي بلطف ، فكنتُ أخجل منه .

وفي أحد الأيام ، بينما كنتُ أقرأ كتاباً إفرنسياً اسمه «تذكار الحمار» [1] ، رأيتُ به فقرت [2] ذكرت ان اللصوص إذا أرادوا سرقة حمار ربطوا ذيله ليمنعوا نهيقه . وقرأتُ سيرة عنترة بن شدّاد ، فرأيتُ بها أن متى أراد إخفاء صوت أبجره ربطه بذيله ، كي لا يصهل . فصرتُ أُعلِّل هذه المسألة طبّياً ، وعرفتُ أن الحمار متى أراد النهيق يحرّك ذيله ، خصوصاً إلى الأعلى ، ولربما هذه الحركة تسعفه على النهيق ؛ أما إذا أُثقل ذَنَبه فيبطل نهيقه .

لذلك ارتأيتُ أن أجرِّب ، لأن التجربة أقوى الأدلة العقلية والنقلية ، فأخذتُ معى عياراً نحاسياً من الصيدلية ، وربطتُه بذيله . وبعد برهة ، بدل ما أسمع نهيق الحمار سمعتُ نهيقاً آخر يشتم الحمار وصاحبه ، فنهضت لأرى سبب ذلك ، وشاهدتُ رجلاً من الأعيان يقول : لمن هذا الحمار الذي يرفس كل من مرّ

---

(1) لا ندري العنوان الأصلي للكتاب الفرنسي ، لكننا نخاله يكون : *Mémoires d'un An* ، أي : مذكرات حمار .

(2) يريد : فقرة . وهكذا نرى بعض مثقّفي لبنان يكتبون التاء المربوطة ، ويلفظونها ، بتاء مبسوطة ، فأكثرهم يقولون : ألجمهوريتْ أللُّبانيّتْ .

بجانبه ؟ وما هذا الثقل المعلق بذيله ؟ فأخبرتُه قصّته ضاحكاً ، قال : إن نهيقه لا يضرُّ كرفسه ، فارفع عنه هذا الثقل ، ودعه ينهق ما شاء ، ولا تدع المارّين تنهق ضدّك [1] .

لو كان لحم الحمار يؤكل !

ذهب طبيبٌ مع تلميذه لعيادة مريض ، ولمّا وصلا إليه سأل الطبيب المريض : هل أكلتَ بطيخاً ؟ فأنكر أولاً ، ثم أقرّ ، فعالجه وذهب . فتعجّب التلميذ من ذلك وسأل معلّمه : من أين عرفت أن المريض أكل بطيخاً ؟ قال : أما نظرتَ عند دخولنا قشر البطيخ بكثرة قرب الباب ؟ قال : بلى ! قال : منه حكمتُ أن المريض أكل بطيخاً . فتعلّم التلميذ .

وفي ذات يوم ، طُلب التلميذُ لمريض ، لأن الطبيب كان غائباً . فدخل على المريض وقال له : لماذا أكلتَ لحم حمار ؟ فتعجّب المريض من هذا السؤال ، وأنكر . وعرف الطبيب قصّته ، فسأل تلميذه : كيف علمتَ أن المريض أكل لحم حمار ؟ قال : ألم تُخبرني أنه متى وُجد شيء قرب باب المريض يكون أكل منه ؟ فأنا رأيتُ جلال حمار في الخارج ، وحكمتُ أن المريض أكل لحم حمار .

فقال الطبيب : لو كان لحم الحمار يؤكل ، لما بقيتَ إلى اليوم ! اذهب واستبدل صنعتك ، لأنها لا تليق بك ولا أنت أهلٌ لها [2] .

* * * * *

(1) مجمع المسرّات ، ص 263-264 .
(2) مجمع المسرّات ، ص 370 .

دمشق الشام[1]

هي أقدم مدينة في الدنيا نظراً لتاريخها وموقعها الطبيعي ، لأن الإنسان بعد حالته البدوية ارتأى ان يسكن محلاً ، فاختار ما جاور الكلأ وخصب التربة لمرعاه ومرعى مواشيه ، ولم تجمع بقعة في بلادنا هذه الشروط نظير دمشق . وذهب بعضهم أنها هي الفردوس الأرضي حسب التوراة ، وأن بعد خروج آدم منها وطرده عاش في الأرض المقفرة الكائنة غربيها ، واستدلوا على ذلك من الأسماء التي فيها نظير أبيلا وهي أن قاين قتل أخاه هابيل فيها . وإن لم تكن دمشق الفردوس الأرضي ، فإنها دون شك مثال الجنة فيها الأنهار والعسل واللبن ومن كل فاكهة زوجان وحور الحين ، ومن رأى دمشق وأنهارها وفاكهتها ولبنها وعسلها وحورها لا يشك بأنها مثال الجنة المستقبلة أو هي الجنة الحاضرة .

ولا أتعرّض لذكر تاريخها ، فقد تقدمني الكثيرون ، غير أن منه ما لم يزل غامضاً وذلك لعدم الحفريات على الآثار القديمة التي فيها ، لأن تربتها كثيفة وسببها الأتربة التي تتساقط عليها كل سنة من الأعلى لأنها واقعة في سهل ولو أرادوا الكشف عن حفرياتها للزم عمق عظيم . ولا أذكر شيئاً عن قدمها إذ هو معلوم أن في ايام ابرهيم الخليل كانت عامرة ، وأنه أخذ خادمه اليعازار الدمشقي منها ، ولا أقول إلا ما رأيته فيها : قد شبّهتُها من الصالحية بمركب سائر في بحر أخضر ، وقد ذكرتُ عنها وعن أهلها ما هو كاف بكتابي «صحة المتزوج وزواج العازب» .

ولما رأيت دمشق وفرقها عن عكا ، اكتريتُ محلاً في حارة باب توما خاصة الحموي الذي كان أعمى وصاحب لوكندة .

* * * * *

(1) النصوص من كتاب مجمع المسرّات ، ص 261 وما بعدها .

شغلي الطبي في الشام

لما اكتريت محلي في الشام وعزمت على الإقامة فيها ، كتبتُ إعلان ونشرته في المدينة وهذا نصه :

قد حضر إلى هذه المدينة الدكتور شاكر الخوري ، وهو تلميذ مدرسة القصر العيني بمصر ، ويعاين المرضى بمحله الكائن بباب توما في لوكاندة الحموي . ومن اختصاصاته مداواة أمراض العين على اختلافها ، ولا يطلب أجرة إلا بعد شفاء المريض .

وجعلت هذه الجملة الأخيرة رواجاً عظيماً علي ، وفي اليوم الثاني كان ازدحام المرضى لا يُقدّر ، وهم يزيدون على المائة أعمى تقريباً ، فصففتُهم بالدار وابتدأت بمعاينتهم ، وكنتُ الذي أرى داءه غير قابل للشفاء أخرجه من الصف وأرسله من حيث أتى ، أما الباقون فكلفتهم أن يعودوا إلى منزلي لإجراء العملية لهم ، واشترط عليهم أن يبقوا في منزلي بغرفة مخصوصة لينالوا الشفاء التام وأجريت منها خمس عمليات كحدقة صناعية وكتركتا (ماء زرقاء) .

وبعد ثمانية أيام شفى الخمسة عميان ، وكانوا من الذين يمشون أمام الأموات ومشهورين بعماهم ، فأبقيتهم عندي إلى يوم الجمعة وكلّفتهم أن يذهبوا إلى الصلاة في الجامع الأموي وأن يعودوا إلى منزلي ، وأبقيت عصيهم رهناً عندي . وبعد الظهر رجعوا إلي ومعهم جمٌّ غفير يتعجبون من شفائهم .

ورأيتُ فتاة تتسوَّل بالمحلات العمومية وعينها شطراء ، فأعطيتها ليرة فرنساوية لتقبل معي أن أجري لها عملية ، وأبقيتها عندي حتى نالت الشفاء وعادت إلى صنعتها . فكان كل من يراها يعجب من شفائها ، وهذا العمل هو الذي سبب لي النجاح ، لأن أطباء دمشق المخصوصين لأمراض العين كانوا من الدَّجالين من عائلة بيت صخر وعائلة أخرى تدعى عائلة الكنفاني [1] .

---

(1) يذكرنا هذا بما روته فاطمة البديوي عن مداواة العيون بدمشق آنذاك حوالي عام 1875 .

وبعد مدة خرجت من منزلي الأول واستأجرت محلاً شرقي البطريركخانة المارونية ملك السغبيني ، واضطررت أن اشتري أثاثاً وأمتعة لأن المنزل الذي كنت استأجرته كان بأمتعة من صاحبه .

ناشد باشا

حين أتيت إلى الشام كان والياً عليها صاحب الدولة الحاج ناشد باشا ، وبعد مدة عُزل وتعين محله ضيا باشا [1] .

ضيا باشا

هو أحد الولاة العظام ، تلقّى علومه في أوروبا ، وكان متمدناً جداً عفيف النفس ذا حميّة وغيرة . أخبرنا أن أوربا ليست كما نظن فيها وأن المعارف سائدة بكل نواحيها ، بل فيها من هم في حال من الجهل عظيمة ، وقد أخبرنا القصة الآتية :

قال : كنت مسافراً بالسكة الحديدية ، وكان فيها عدة نساء يتكلّمن عن الشرقيين ويقلن لبعضهن أن لأهل الشرق قروناً تنبت في رؤوسهم . فعند ذلك تقدّمتُ إليهن كشفتُ عن رأسي وقلت لهن : اسمحن لي أيتها السيدات أن اغالطكن في ما تقلنه ، فها أنا شرقي ورأسي لا قرون فيه ! فلم يصدّقن أنني شرقي ، بل قلن لي : لو كنتَ من هذا الجنس لكان برأسك قرون ! فانظر الى هذا الجهل السائد في بلاد المعارف .

وأهم ما فعله ضيا باشا في الشام هو :

---

(1) كانت ولاية راشد ناشد باشا 8 أشهر في عام 1876 ، ثم وليها ضيا باشا في نفس السنة .

حجرة صلاح الدين الأيوبي

عندما زار ضياء باشا قبر صلاح الدين الأيوبي ، ورآه بحالة دارسة ، قال لمن حوله : أهكذا تفعلون بمحافظ الدين والإسلام والمدينة ؟ ألا تذكرون أنه هو الذي أعاد هذه البلاد إلى الإسلام بتعبه وجهاده ، ولولاه لماكنتم فيها الآن ؟ فيلزم أن نصلح هذه القبة ، ونقيم له مقاماً لائقاً به .

فادَّعوا عدم وجود الدراهم . قال : إني أوجدها لكم . وعمل لائحة وزّع بها على بعض الذوات قدراً معلوماً ، حتى جمع مبلغاً غير يسير ، وأقام حجرة عظيمة باقية حتى اليوم .

وصلاح الدين الأيوبي هو الذي حكم سوريا ومصر وكان أعظم حاكم بالعدل والإنصاف ، وقد حفظ له التاريخ ذكراً مجيداً وحسنات وشهامة لم يذكرها لسواه ، حتى أن أعداءه الصليبيين يشهدون له هذه الشهادة . وكان عدوه الأكبر ريكاردوس قلب الأسد ملك الانكليز ، فكانا عند انتهاء المواقع يجتمعان ويأكلان سوية ، وفي الحرب يعودان إلى العداء [1] . ولما تهادنا رجع ريكاردوس إلى مملكته وبقي صلاح الدين في بلاده ، وتوفي بدمشق ولم يخلّف شيئاً من المال ، فدُفن في القلعة الأول ، ثم نُقل إلى الصالحية ، ثم إلى جانب الجامع الأموي الشريف حيث لم يزل هناك .

---

(1) ليس ذلك بصحيح ، وهذه الرّواية روّج لها القصّاص السكوتلندي الشهير والتر سكوتّ Sir Walter Scott في روايته المعروفة «الطِّلِسْم» *The Talisman* . أما الواقع فأن الملكين كانا يتهاديان ويتبادلان الأطعمة ، دون أن يلتقيا ولا مرّة واحدة ، بل كانت هناك لقاءات عديدة بين الملك ريتشارد وأخي صلاح الدين الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد ابن أيوب ، وما يهم ذكره أن ريتشارد عندما عجز عن استرداد القدس الشريف الذي حرّره صلاح الدين عقب حطين عام 1178 م ، لم يرَ بُدّاً من استجداء الصلح مع السّلطان . ولقد فصّلنا في كل ذلك بنشرتنا للكتاب الرائع الذي وضعه بهاء الدين ابن شدّاد في سيرة السّلطان الناصر صلاح الدين : «النوادر السّلطانية والمحاسن اليوسفية» ، صدر عن منشورات دار الأوائل بدمشق 2002 .

وقد أناط ضيا باشا هذا العمل بصاحب الدولة أحمد عزت باشا العابد ، الذي كان يومئذ رئيس الأقلام بدمشق . والذي بنى الحجرة رجل نصراني من دمشق اسمه الوردي وهو من النحاتين المشهورين .

حالة صلاح الدين

قد أخبرني يومئذ دولتلو أحمد باشا والوردي الذي كان نحاتاً مسيحياً أنهما حين أرادوا نقل التابوت إلى الحجرة وجدوا الجثة على حالتها الطبيعية ، كأنها دُفنت حديثاً وليس من ستمائة سنة ، وكان لم يزل شعر رأسه وشاربه ولحيته [1] .

ولم تطل مدة ضيا باشا ، حتى نقل الى أدرنه ، وتوفي فيها ، وخلفه دولتلو «جودت باشا» . إن الشهرة الى اكتسبها صاحب الدولة جودت باشا لتأليفه تاريخ الدولة العلية ولعلومه الشرقية وتعبه في ترتيب المجلة والنظامات ، كانت عظيمة جداً . وقد اتى معه احد مواطنينا الدكتور الياس أفندي مطر ، وجعله طبيب بلدية الشام بدلاً عن الدكتوركوسيني .

مستشفى نور الدين

كان في دمشق مستشفى قديم جداً بناه نور الدين ، وأوقف له أوقافاً عظيمة وعيّن فيه أطبّاء ومستخدمين عديدين ، منهم فئة وجدتُ أسماءهم في دفاتر قديمة في هذا المستشفى ، كانت تُدعى المطمّنين ، ووظيفة المطمِّن أن يجلس في غرفة

---

(1) هذا الأمر وارد بحسب معدّل الرطوبة الموجود في الأرض . ولقد روى لي أستاذنا الكريم والصديق الحبيب الأستاذ هاني المبارك ، أنه حضر بنفسه في عصرنا عملية ترميم أجريت لضريح البطل صلاح الدين ، وشاهد بنفسه جثمانه ، الذي لم يزد على بقايا عموده الفقري . وطبيعي أن فتح الضريح في عام 1876 ودخول الهواء إليه قد أدّى إلى تكاثر البكتيريا التي أدّت إلى التحلّل النهائي للجثمان . وإن كان كل ذلك لا يعني شيئاً !

قريبة من محل المريض بحيث يسمع صوته ويقول : إن الطبيب أخبرني عن فلان النائم في الفراش الفلاني أن مرضه بسيط جداً وسيشفى عن قريب . فحين يسمع هذا القول يتنشّط ويكون النشاط سبباً لشفائه ، فانظر الى هذه العادة الجميلة التي غفلت عنها مستشفيات عصرنا [1] .

أما حالة هذا المستشفى الآن فهي عبارة عن بناء قديم من تلك الأيام ، وأوقافه قليلة جداً لا تكاد تفي راتب الناظر والكاتب والمصاريف الي يتطلبها خمسة او ستة مرضى ، وقد خصّوه للمجانين [2] ، ومن واجبات طبيب البلدية زيارته وعيادة المرضى كل اسبوع على الأقل [3] .

* * * * *

(1) حقاً فهذا أمر لطيف ويدل على سموّ الحسّ الحضاري لأهل ذلك العصر . وحكاية هؤلاء المطمّنين في البيمارستان النُّوري ودفاتر أسمائهم ينفرد بذكرها الدكتور شاكر الخوري .

(2) ولذلك صارت كلمة «المرستان» بدمشق تعني مشفى الأمراض العقلية ، أو «العصفوريّة» كما يسمّيها بعضهم . أما أصل الكلمة ففارسي مركب من مقطعين : بيمار - استان ، أي محلّ إقامة المرضى ، أو مشفى . يحكي الرّحالة الأندلسي ابن جُبير ، حينما زار دمشق عام 580 هـ ورأى بها البيمارستان النوري : وللمجانين المعتقلين أيضاً ضربٌ من العلاج ، وهم في سلاسل موثّقون ، نعوذ بالله من المحنة وسوء من القَدَر . وتندّ من بعضهم النوادر الظريفة ، حسبما كنّا نسمع به . ومن أعجب ما حُدِّثتُ به من ذلك : أن رجلاً كان يعلّم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أُوتي مسحة جمال واسمه نصر الله ، وكان المعلّم يهيم به ، فزاد كلفه حتى اختبل وأُدّي الى المارستان ، واشتهرت علّته وفضيحته بالصبيّ ، وربما كان يُدخله أبوه إليه . فقيل له : اخرجْ ، وعُد لما كنت عليه من القرآن ! فقال متماجناً تماجُنَ المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما بقي في حفظي من القرآن شيء سوى : ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ الله ﴾ ، فضُحك منه ومن قوله . ونسأل الله العافية له ولكلّ مسلم . فلم يزل كذلك حتى توفي ، سمح الله له .

(3) بعد هذه الفقرات في نص الدكتور شاكر الخوري معلومات تاريخية هامة عن شمدين آغا الدّقوري ، أحد أعيان الأكراد بدمشق في عصره ، وهو الذي تولّى ابنه محمد سعيد باشا إمارة الحج الشامي (1870-1892 م) ، ثم تبعه في ذلك حفيده عبد الرّحمن باشا اليوسف (1892-1918 م) .

حرفيون دمشقيون يعملون في كار نحاس «الظاهري» ، صورة من أوائل القرن العشرين

نبذة تاريخية
جمع الياس بن عبده بك القدسي قنصل دولة فولانده في دمشق
تقدمها للمجمع
العلمي الشرقي الملتئم في مدينة
ليدن
١٩٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ان البحث الذي اقدمتُ اليوم على الخوض فيه امام محفلكم المؤقر هو نبذة تاريخية علمية عن الصنائع او ما يقال له «الحِرَف» في مدينة دمشق والذي يعثني على ذلك هو انني فزتُ بشرف معرفة العلم العلامة والبحر الفهامة الدكتور كارلو لنذبرج الاسوجي الشهير اذ سافرنا معًا من بيروت الى دمشق وكان آتيًا من مملكة فولانده بقصد جمع لغة العامة في دمشق وضواحيها ولما علمت بغيته التي من اجلها تكلف ان يكابد مشقات السفر ويحتمل مصارفه عرضتُ نفسي عليه ان لا يؤخر على التعب في كلّ ما يحتاج اليه الوصول الى بغيته وعرضت عليه ايضًا ما كنت آخذًا به من جمع الاصول المشتركة بين اللغتين العربية واليونانية ورجوته ان يعين لي علاوة على ذلك عملًا على نسبة قدرتي اجعله باكورة اتقدمها لمحفلكم المؤقر ومقدمة لما نويت الانعكاف عليه من الاشغال والدروس في مثل

نبذة تاريخية في الحرف الدّمشقية ، الصفحة الأولى من الطبعة القديمة